

الرَّسَالَةُ ٦٥

الشَّمْسُ خَلْفَ الْغَيْمَةِ

(Arabic - The sun is behind the clouds)

أحبائي.. حديثنا اليومَ مَوْضُوعُهُ: الشَّمْسُ خَلْفَ الْغَيْمَةِ

ومن سفر التكوين الأصحاح الثاني والأربعين نقرأ العدد السادس والثلاثين:
"فَقَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ الْعَشْرَةَ: أَعْدَمْتُمُونِي الْأَوْلَادَ!. يُوسُفُ مَقْفُودٌ وَشِمْعُونُ مَقْفُودٌ وَبَنِيَامِينَ تَأْخُذُونَهُ!؟. صَارَ كُلُّ هَذَا عَلَيَّ!؟"^١

عندما يَطْلُعُ النَّهَارُ نَتَوَقَّعُ بَزْوَجِ الشَّمْسِ لَتَحْتَلَّ مَكَانَهَا فِي كِبِدِ السَّمَاءِ.. وَحِينَ تَتَلَدَّبُ السَّمَاءُ بِالسُّحُبِ وَالْغَيُومِ يَتَعَدَّرُ عَلَيَّ أَعْيُنُنَا رُؤْيَا الشَّمْسِ الَّتِي تَمَلَأُ الدُّنْيَا بِنُورِهَا وَلَكِنْ لَا نَرَاهَا!. فَإِذَا انْتَشَعَتِ الْغَيُومُ نَفَاجَتْنَا الشَّمْسُ الْمُحْتَجِبَةَ عَنْ أَعْيُنِنَا فَنَرَاهَا!. وَنَدْرُكُ وَقْتِذَاكَ أَنَّهُ أحيانًا يَغِيبُ عَنْ أَهَانِنَا أَنَّ الشَّمْسَ خَلْفَ الْغَيْمَةِ!.. وَهَذَا مَا يَحْدُثُ مَعَنَا وَلَا نَنْتَبِهُ إِلَيْهِ إِذَا أَحَاطَتْ بِنَا الظُّرُوفُ الصَّعْبَةُ وَالْمَشَاكِلُ الْمُسْتَعْصِيَةُ وَتَلَدَّدَتْ سَمَاءُ حَيَاتِنَا بِغَيُومِ التَّجَارِبِ الْقَاسِيَةِ وَتَاتَيْنَا أَفْكَارُ الشُّكِّ وَالْإِرْتِيَابِ.. كَيْفَ أَنْ اللهُ الَّذِي يُحِبُّنَا سَمَحَ بِمَا هُوَ فَوْقَ طَاقَتِنَا!؟. وَتَمَتَّلَى قُلُوبُنَا بِالْأَسَى وَغَيُوبِنَا بِالْمَوْعِ وَنَقَفَ حَيَارَى لِنَتَسَاءَلَ أَيْنَ اللهُ!؟. هَلْ تَرَكْنَا!؟. هَلْ ابْتَعَدَ عَنَّا!؟. وَإِلَى مَتَى!؟. كَيْفَ نَحْيَا بَدُونَهُ!؟. لِمَاذَا نَصْرُخُ إِلَيْهِ وَلَا يُجِيبُنَا!. وَلِسَانُ حَالِنَا مَا قَالَهُ الْمُرْتَمِّمُ فِي مَرْمُورِهِ: "يَا رَبِّ لِمَاذَا تَقَفَ بَعِيدًا!؟. لِمَاذَا تَخْتَفَى فِي أَرْمَنَةِ الضِّيْقِ!؟" .. وَلَكِنْ حِينَمَا نَعُودُ إِلَى صَوَابِنَا وَنَنْظُرُ إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ بَعَيْنِي الْإِيمَانَ.. نَدْرُكُ أَنَّ اللهَ قَرِيبٌ مِنَّا لَمْ يَخْتَفِ عَنَّا فِي أَرْمَنَةِ الضِّيْقِ وَلَكِنْ شَكَّوْنَا أَبْعَدْتَنَا عَنْهُ.. فَحَنَّنَ بِهِ وَوَلَّيْسَ بِسِوَاهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكَ وَنُوجِدُ.^٢

ليسَ اللهُ عَنَّا بِبَعِيدٍ. إِنَّ الشَّمْسَ خَلْفَ الْغَيْمَةِ. لَمْ يَأْتِ اللَّيْلُ بَعْدُ. وَلَنْ يَأْتِيَ طَالَمَا الشَّمْسُ فِي كِبِدِ السَّمَاءِ.. أَمَا السُّحُبُ وَالْغَيُومُ فَمَا هِيَ إِلَّا مِيَاءٌ مُتَبَخَّرَةٌ سَتَعُودُ إِلَيْنَا بِالْخَيْرِ عِنْدَ تَكْنِيفِهَا. سَتَهَطُّ أَمْطَارًا عَلَيَّ أَرْضِينَا. سَتَمَلَأُ الْجَدَاوِلُ وَالْأَنْهَارُ بِالمِيَاهِ الْعَذْبَةِ.. حِينِئذٍ سَتَكْتَشِفُ أَنَّ مَا ضَفَقْنَا بِهِ مِنْ سُحُبٍ وَغَيُومٍ هِيَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْنَا!. فَتَعْرِفُ قَدْرَ الشَّمْسِ وَقَدْرَ السُّحُبِ وَالْغَيُومِ.. وَنَقْدَمُ حَمْدًا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لْخَيْرِنَا.. وَأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِكُلِّ حِكْمَةٍ صَاغٍ وَأَبْدَعُ!. كَانَتْ الصَّدْمَةُ قَاسِيَةً عَلَيَّ يَعْقُوبُ حِينَ طَلَبَ أَوْلَادَهُ مِنْهُ السَّمَاحَ لَهُمْ بِأَخْذِ بَنِيَامِينَ أَخِيهِمِ الْأَصْغَرَ لِلذَّهَابِ مَعَهُمْ إِلَى أَرْضِ مِصْرَ.. لَوْفَاءَ شَرْطِ الزَّمَمِ بِهِ أَخُوهُمْ يُوسُفُ الَّذِي لَمْ يَعْرِفُوهُ حِينَمَا ذَهَبُوا لِشِرَاءِ القَمْحِ مِنْ مِصْرَ لِإِنْقَاضِ أَسْرَةِ يَعْقُوبِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ مِنَ الْمَجَاعَةِ الَّتِي شَمَلَتْ هَذِهِ الشُّعُوبَ تِلْكَ الْأَيَّامِ.. صَاحَ يَعْقُوبُ فِي يَأْسٍ مَرِيرٍ: "أَعْدَمْتُمُونِي الْأَوْلَادَ!. يُوسُفُ مَقْفُودٌ!. وَشِمْعُونُ مَقْفُودٌ!. وَبَنِيَامِينَ تَأْخُذُونَهُ!؟. صَارَ كُلُّ هَذَا عَلَيَّ!؟".

إِنَّ الْغَيُومَ الْقَاتِمَةَ حَجَبَتِ الشَّمْسَ عَنْ نَظَرِيهِ.. لَقَدْ مَضَى عَلَيَّ حَادِثٌ فَقَدْ ابْنَهُ يُوسُفُ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ عَشْرَ عَامًا وَجُرُحُ قَلْبِهِ لَمْ يَلْتَمُ بِعَدُ.. لِذَلِكَ حَرَصَ يَعْقُوبُ الْمَرَّةَ الْأُولَى عَلَيَّ اسْتِيقَاءَ ابْنِهِ بَنِيَامِينَ مَعَهُ وَلَمْ يَدَعُهُ يَذْهَبُ مَعَ إِخْوَتِهِ حِينَ ذَهَبُوا لِيَبْتَاعُوا قَمْحًا مِنْ مِصْرَ.. صَوَّرَ لَهُ خَوْفَهُ أَنَّهُ سَيَفْقَدُ بَنِيَامِينَ كَمَا فَقَدَ يُوسُفُ.. فَإِنْ كَانَ وَحْشٌ رَدِيٌّ افْتَرَسَ يُوسُفَ كَمَا أَخْبَرَهُ أَوْلَادُهُ حِينَ أَتَوْا بِقَمِيصِهِ مَلُوتًا بِالدَّمِ.. فَلَنْ يُفْرِطَ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي بَنِيَامِينَ لِيَأْتُوهُ بِخَبَرِ سَبْيِ أَيْخَرٍ.. وَيَكْفِيهِ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قَالُوا عَنْهُ أَنَّهُ سَيُدُّ الْأَرْضَ بِمِصْرَ قَدْ احْتَجَزَ ابْنَهُ شِمْعُونَ.. وَلَكِنْ تَحْتَ الْحَاحِ الْحَاجَةِ إِلَى الْخُبْرِ.. وَاقْفُ يَعْقُوبُ عَلَيَّ إِرْسَالِ بَنِيَامِينَ مَعَ سَائِرِ أبنَائِهِ إِلَى مِصْرَ.

فَدُ نَتَسَاءَلُ: لِمَاذَا سَمَحَ اللهُ بِالْغَيُومِ لِتَحْرِمَ يَعْقُوبَ مِنْ رُؤْيَا الشَّمْسِ هَذِهِ الْفِتْرَةَ الطَّوِيلَةَ!؟. رَبُّمَا لِأَنَّ يَعْقُوبَ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الدُّرُوسِ لِتَعَلُّمِهَا بَعْدَ أَنْ اسْتَحْدَمَ وَسَائِلَ الْخِدَاعِ لِلْوُصُولِ إِلَى مَآرِبِهِ.. وَرَبُّمَا قَصَدَ الرَّبُّ أَنْ يُعَالِجَ أَسْلُوبًا كَانَ غَيْرَ حَكِيمٍ قَدْ عَامَلَ بِهِ يَعْقُوبُ أَوْلَادَهُ إِذْ مَيَّزَ وَاحِدًا مِنْهُمْ وَهُوَ يُوسُفُ وَاخْتَصَّهُ بِقَمِيصِ مَلُونٍ وَبِمَشَاعَرَ حُبِّ خَاصَّةٍ.. أَشْعَلَتْ فِي قُلُوبِ بَاقِيِ أَوْلَادِهِ نِيرَانَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَالبُغْضَةِ الْقَاتِلَةِ.. فَأَبْعَدَ اللهُ يُوسُفَ عَنْ

يَعْقُوبَ أَبِيهِ وَأَبْعَدَ يَعْقُوبَ عَنْ يُوسُفَ ابْنِهِ.. وَرُبَّمَا قَصَدَ الرَّبُّ بِنَاءَ شَخْصِيَّةِ يُوسُفَ بِصِفَلِ مَعَدِّيهِ بِمَحَاكِتِ صَعْبَةِ.. إِذْ أَدْخَلَهُ مَدْرَسَةَ الْأُمِّ فَخَرَجَ مِنْهَا رَجُلًا حَكِيمًا بَصِيرًا.. وَتَبَوَّأَ يُوسُفُ مَرْكَزًا مُمْتَازًا بِمِصْرَ فَصَارَ نَافِعًا لِشَعْبِهِ وَلِشَعْبِ مِصْرَ.. كَمَا أَنَّهُ بِحِكْمَتِهِ وَأَمَانَتِهِ وَخَوْفِ الرَّبِّ فِي قَلْبِهِ تَمَجَّدَ اسْمُ الْإِلَهِ الْحَيِّ فِي مِصْرَ.

حَقًّا مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَ اللَّهِ عَنِ الْفَحْصِ وَطَرَفَهُ عَنِ الْاسْتِقْصَاءِ.. لَقَدْ جَاءَ الْوَقْتُ وَانْفَشَعَتِ الْغَيْومُ وَانْجَلَتْ السُّحُبُ.. وَظَهَرَتِ شَمْسُ الْبَرِّ لِيَعْقُوبَ فِي طَرِيقِ ارْتِحَالِهِ مِنْ كَنْعَانَ إِلَى مِصْرَ.. وَكَلِمَةُ الرَّبِّ فِي رُؤْيِ اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: يَعْقُوبُ! يَعْقُوبُ! فَقَالَ: هَآنَذَا. فَقَالَ: "أَنَا اللَّهُ إِلَهُ أَبِيكَ. لَا تَخَفْ مِنَ النُّزُولِ إِلَى مِصْرَ لِأَنِّي أَجْعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً هُنَاكَ. أَنَا أَنْزَلْتُ مَعَكَ إِلَى مِصْرَ وَأَنَا أَصْعِدُكَ أَيْضًا". حِينَ انْفَشَعَتِ الْغَيْمَةُ اكْتَشَفَ يَعْقُوبُ أَنَّ مَا قَالَهُ كَانَ بَعِيدًا عَنِ الصَّوَابِ. فَيُوسُفُ حَيٌّ وَشَمْعُونُ حَيٌّ وَبَنِيَامِينَ مَا زَالَ حَيًّا!. وَكَلَّ مَا صَارَ كَانَ أَحْسَانًا مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَوْلَادِهِ.. "مَا أَعْظَمُهُ مِنْ دَرَسٍ نَتَلَعُمُهُ!. أَنَّ الشَّمْسَ خَلْفَ الْغَيْمَةِ!. وَلَا يَجُوزُ أَنْ نَخْدَعُ بِكَثْرَةِ الْغَيْومِ.. وَنَجْعَلَهَا هُمُومًا!"^١

فِي ضَعْفِنَا يَقُودُنَا إِبْلِيسُ إِلَى بِالْوَعَةِ الْيَاسِ.. وَفِي عَدَمِ إِيْمَانِ تَتْرَأَى الْأَسْوَارَ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِينَا وَكَأْتَهَا مُنْهَارَةً عَلَيْنَا. وَيَبْدُو الْأَسْرَارُ فِي أَعْيُنِنَا عَمَالِقَةً وَنَحْنُ كَجِرَادٍ مُسْتَضْعَفٍ.. حَدَّثَ هَذَا مَعَ إِيْلِيَا الرَّجُلِ الْعَظِيمِ: "الَّذِي صَلَّى يَوْمًا صَلَاةً أَنْ لَا تَمُطِرَ السَّمَاءُ فَلَمْ تَمُطِرْ ثَلَاثَ سَنِينَ وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ. ثُمَّ صَلَّى أَيْضًا فَأَعْطَتْ السَّمَاءُ مَطْرًا وَأَخْرَجَتْ الْأَرْضُ ثَمَرَهَا!". وَحِينَ قَدَّمَ مُحْرِقَتَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ اسْتَجَابَهُ الرَّبُّ بِنَارٍ مِنَ السَّمَاءِ أَكَلَتْ الْمُحْرِقَةَ وَالْحَطَبَ وَكَلَّ مَا عَلَى الْمَذْبَحِ.. فَلَمَّا رَأَى جَمِيعُ الشَّعْبِ ذَلِكَ سَقَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَقَالُوا: "الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ!. الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ!".^٢

مَنْ يُصَدِّقُ؟! أَنْ إِيْلِيَا هَذَا يُصَابُ بِخَبِيَّةِ أَمَلٍ وَيَاسُ قَاتِلُ!. حِينَ قَتَلَ أَخَابُ الْمَلِكِ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ وَهَدَّهَ بِالْقَتْلِ.. فَجَلَسَ إِيْلِيَا تَحْتَ رَتْمَةٍ وَطَلَبَ الْمَوْتَ لِنَفْسِهِ وَقَالَ: "قَدْ كَفَى الْآنَ يَا رَبُّ!. خَذْ نَفْسِي!. لِأَنِّي لَسْتُ خَيْرًا مِنْ آبَائِي!. لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ تَرَكَوا عَهْدَكَ وَنَقَضُوا مَذَابِحَكَ وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَكَ بِالسَّيْفِ فَبَقِيتُ أَنَا وَحْدِي وَهُمْ يَطْلُبُونَ نَفْسِي لِيَأْخُذُوهَا!". لَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ مَلَكَهُ إِلَى إِيْلِيَا وَفِي إِشْفَاقٍ عَجِيبٍ يَلْمُسُ الْمَلَكَ إِيْلِيَا وَهُوَ تَحْتَ الرَّتْمَةِ قَاتِلًا لَهُ: "قُمْ وَكُلْ!". فَلَقَدَ اللَّهُ لِإِيْلِيَا كَعْكَةَ شَهِيَّةٍ وَكُوبَ مَاءٍ وَجَدَّهُمَا إِيْلِيَا عِنْدَ رَأْسِهِ.. فَقَامَ وَأَكَلَ وَشَرَبَ وَسَارَ إِلَى جَبَلٍ حُورِيٍّ وَدَخَلَ مَغَارَةً وَبَاتَ فِيهَا.. وَهَنَّاكَ شَجَعَةُ الرَّبِّ وَأَوْضَحَ لَهُ أَنَّ الْحَالَ لَيْسَ كَمَا يَظُنُّ إِيْلِيَا وَيَتَصَوَّرُ. أَعْلَمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ مَا بَقِيَ وَحْدَهُ. فَلَقَدَ قَالَ لَهُ الرَّبُّ: "وَقَدْ أَبْقَيْتُ فِي إِسْرَائِيلَ سَبْعَةَ آلَافٍ لَمْ تَجِبْ رُكْبَهُمْ لِيَعْلَ.. فَهَمَّهَا كَانَتْ الْغَيْومُ كَالْحَةِ فَهِيَ لَيْسَتْ بِقَادِرَةٍ عَلَى مَنَعِ الشَّمْسِ مِنْ أَنْ تَعْلَنَ عَنْ وُجُودِهَا فِي وَضْحِ النَّهَارِ".^٣

وَالْمَثَلُ الثَّلَاثُ لِنَتَعِظُ بِهِ هُوَ لِرَجُلٍ مِنْ رِجَالِ اللَّهِ يُدْعَى آسَافَ. أَصَابَتْهُ كَآبَةٌ حِينَ رَأَى نَجَاحَ الْأَشْرَارِ مَعَ تَمَرْدِهِمْ عَلَى اللَّهِ. أَذْهَلَهُ صَبْرُ اللَّهِ وَأَنَاتُهُ عَلَيْهِمْ.. فَفِي مَرْمُورِهِ الثَّلَاثِ وَالسَّبْعِينَ يَقُولُ: "أَمَّا أَنَا فَكَادَتْ تَنْزِلُ قَدَمَاي!. لَوْلَا قَلِيلٌ لَزَلْتُمْ خَطَوَاتِي!. لِأَنِّي غَرْتُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ إِذْ رَأَيْتُ سَلَامَةَ الْأَشْرَارِ!. لِأَنَّهُ لَيْسَتْ فِي مَوْتِهِمْ شِدَائِدٌ وَجِسْمُهُمْ سَمِينٌ. لَيْسُوا فِي تَعَبِ النَّاسِ وَمَعَ الْبَشَرِ لَا يُصَابُونَ. لِذَلِكَ تَقَلَّدُوا الْكِبْرِيَاءَ". وَكَتَبَتْهُ فِي نِهَائِهِ مَرْمُورَهُ يَقُولُ: "حَتَّى دَخَلْتُ مَقَادِسَ اللَّهِ وَانْتَبَهْتُ إِلَى آخِرَتِهِمْ". ثُمَّ يُخَاطَبُ رَبَّهُ قَائِلًا: "أَمْسَكَتْ بِيَدِي الْيُمْنَى بِرَأْيِكَ تَهْدِينِي وَبَعُدْتُ إِلَى مَجْدٍ تَأْخُذْنِي. مَنْ لِي فِي السَّمَاءِ وَمَعَكَ لَا أُرِيدُ شَيْئًا فِي الْأَرْضِ. أَمَّا أَنَا فَالْآفِتْرَابُ إِلَى اللَّهِ حَسَنٌ لِي".^٤

عَزِيزِي الْقَارِي.. أَمَا جُزْتَ اخْتِبَارًا شَبِيهًا بِاخْتِبَارِ يَعْقُوبَ؟. أَوْ إِيْلِيَا؟. أَوْ آسَافَ؟. وَأَدْرَكْتَ بَعْدَ ارْتِحَالِ السُّحُبِ وَانْبِلَاجِ النَّوْرِ أَنَّ الشَّمْسَ خَلْفَ الْغَيْمَةِ؟!. وَأَنَّ كُلَّ الْأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ الرَّبَّ؟!. لَيْتَكَ أَخِي تَصَلِّيَ مَعِي: أَبَانَا السَّمَاوِيِّ.. أَشْكُرُكَ مِنْ أَجْلِ كُلِّ مَا عَلَّمْتَنِي إِيَّاهُ وَمَا حَذَرْتَنِي مِنْهُ. هَبْنِي نِعْمَةً كِي لَا أَسْمَحَ لِنَفْسِي بِالْبِقَاءِ عِنْدَ رَتْمَةِ الْيَاسِ وَأَرْقُضُ رُوحَ الْفِشْلِ وَالنَّدَمِ وَلَا أَنْخَدِعَ بِسَلَامَةِ الْأَشْرَارِ. بَلْ يَكُونُ شِعَارِي عَلَى الدَّوَامِ شِعَارَ آسَافَ بَعْدَ أَنْ دَخَلَ مَقَادِسِكَ: جَعَلْتُ بِالسَّيِّدِ الرَّبِّ مَلْجَأً لِأَخْبِرَ بِكُلِّ صِنَائِعِكَ. أَرْفَعُ صَلَاتِي فِي اسْمِ يَسُوعَ الْبَارِ وَاتَّقَا أَنْ نُورِكَ يَسْطُوعَ رَغَمَ صَبَابِ التَّجَارِبِ وَأَنَّكَ تَسْتَجِيبُ لِي يَا مَنْ قُلْتَ: مَنْ يُقْبَلُ إِلَيَّ لَا أَخْرِجُهُ خَارِجًا.

أَخِي الْقَارِي الْعَزِيزِ.. إِنْ أَرَدْتَ سَمَاعَ تِلْكَ الرِّسَالَةِ أَوْ غَيْرَهَا سَتَجِدُ ذَلِكَ فِي:

<http://www.muhammadanism.org/Media/Audio/BetterLife/Default.htm>

^١ رسالة بولس الرسول إلى مؤمنى رومية ١١: ٣٣ ، سفر ملاخي ٤: ٢ ، سفر التكوين ٤٦: ٤
^٢ سفر العدد ١٣: ٣٣ ، رسالة يعقوب ٥: ١٧ ، سفر الملوك الأول ١٨: ٣٨ - ٣٩

^٣ سفر الملوك الأول ١٩: ٤ - ١٨

^٤ سفر المزمير ٧٣: ٢ - ٢٨